الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة أحمد زبانة غليزان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

تخصص: السنة الثانية ماستر أدب جزائري.

مقياس: الآداب الأجنبية "عن بعد".

يوم السبت 14:30سا-16:00سا.

.

الأستاذة: خلوف نعيمة

جامعة غليزان – الجزائر.

naima.khellouf@univ-relizane.dz

المحور الأول: المجتمعات الأجنبية عند العرب

المحاضرة الثانية: الثقافة الفرنسية.

تمهيد:

يشترك العالم في صفة الإنسانية التي تتيح له إنشاء العلاقات الاجتماعية على الرغم من الاختلافات الكثيرة وأولها الدين. وتمتد هذه العلاقات إلى تاريخ غابر، نقلتها الثقافة والفنون والآداب وصورت تفاصيلها وحكت عنها في الآثار والموروث المادي واللامادي.

على خلاف الثقافة والمجتمع العربي الذي يؤرخ له من العصر الجاهلي، والعصور التي قبله، يتم دراسة الثقافات الأخرى " الفرنسية والأمريكية" بحقب تاريخية مختلفة، وعن الثقافة الأوروبية يقول فاليري : (إن فكرة الثقافة والذكاء والأعمال القيمة تتركز عندنا في صلة موغلة في القدم – وهي قديمة لدرجة أننا نادرا ما نسترجع صلتها بفكرة أوروبا)"[1]" ولهذا ارتبطت الثقافة في أوروبا بالتحولات السياسية الكبرى التي حصلت في العالم الغربي. أولا الثقافة والأدب الفرنسيين، ثم يأتي الحديث لاحقا عن الثقافة والأدب الأمريكيين.

تنتسب الثقافة والأدب الفرنسيين إلى المجتمع الفرنسي في جغرافيا بلد اسمه فرنسا، وهو جزء من الثقافة العالمية، تحدث عنها كثير من المؤرخين والنقاد، وساهم في تطويرها الأدباء والمثقفون الفرنسيون تحديدا.

تمتد جذور الثقافة الفرنسية إلى المجتمع الأوروبي وما مرّ عليه من الحضارات القديمة، وانطلاقا من (فكرة الثقافة، كما كتب بول فاليري، تكمن بالنسبة لنا في علاقة غاية في القدم مع فكرة أوروبا، كما أن فرنان بروديل كان يؤكد أن الثقافة هي لغة أوروبا المشتركة)"[2]" وهذا رأي يمجد الوحدة الثقافية الأوروبية وفرنسا جزء منها.

تاريخ فرنسا الثقافي:

إن التراكمات الثقافية التي توالت عبر الزمن والمكان في فرنسا تحديدا، لا يمكن حصرها لتعدد أوجه الثقافة فيها حسب الحضارات المتعاقبة من جهة، ولتغير الأزمنة وطولها من جهة أخرى، لذلك نجد مثلا كتاب "تاريخ فرنسا الثقافي من "العصر الجميل" إلى أيامنا هذه"، للكاتبين باسكاله جوتشيل وإيمانويله لوابيه، حيث ركز مضمون الكتاب على العصر الجميل كما هو بارز في العنوان أي فترة ازدهار الثقافة الفرنسية وقوتها.

أيضا توقف عند المراحل الكبرى التي غيرت الوجه الثقافي في فرنسا وأثرت على الثقافة العالمية عموما، بدأ بناء الصرح الثقافي في فرنسا مع الطبقة المتعلمة أو النخبة في المجتمع، ثم جاء دور المدارس في بلورة هذه الغاية، وهكذا بنيت العلاقة بين المجتمع

والكتاب وهو أول طريق للنجاح في التميز الثقافي، فعندما ينتقل التلميذ من المدرسة إلى البيت ثم إلى المجتمع يكون رفيقا للكتاب المدرسي، أو الكتاب عموما مهما كانت موضوعاته وبناء مجتمع قارئ غاية المثقف وهذا ما نجحت فيه الثقافة الفرنسية.

العامل المساعد في نشر الكتب ووصول أكبر قدر منها إلى يد القراء؛ هو المطبعة من جهة، ونشاط دور النشر من جهة أخرى، باعتماد أساليب الدعاية والتسويق، مرة بالنظر إلى أهمية الموضوعات المطروحة للقراءة، ومرات على طريقة تقديم الكتاب وجلب الانتباه وتخفيض الأسعار.

كما استحدث طرقا أكثر فاعلية في الاقتراب من المجتمع وخاصة القراء منه، نقل محتوى الكتاب من القول إلى الفعل وتحويله إلى أعمال مسرحية؛ بإنشاء دور العرض والمسرح كما تمت ترجمة الكتب الأجنبية إلى اللغة الفرنسية وتقديمها في قوالب مسرحية تتقمصها شخصيات العمل في أدوار تجمع بين الخير والشر، أو الفرح والحزن، وغيرها من مظاهر وطبع النفس البشرية، وانعكاسها على المجتمع،وهي ذاتها صورة مصغرة لما يعيشه المجتمع الفرنسي وقتها، وما هي التغيرات التي يمر بها.

زوار المسرح يبحثون عن التجديد، وهذا ما وجدوه في دور السينما التي انطلقت بقوة (أول عرض سينمائي عام نظمه في 18ديسمبر1890م الأخوان لوميير Lumièreفي باريس)"[3]" وكانت موجهة للمجتمع الثري والراقي في المجتمع الفرنسي آنذاك، وتحولت القصص والروايات التي كتبت سابقا إلى أعمال خالدة أحيت روح الفن والإبداع من جديد، كما ظهر سينمائيون جدد اعتمدوا على سيناريوهات متقنة أنتجت خصيصا للتوجه إلى السينما.

وبما أن السينما موجهة للطبقة المميزة والارستقراطية، (نمت السينما الشعبية، سهل التردد عليها نظرا لأن العاصمة الفرنسية امتلأت بصالات العرض السينمائي: فقد زاد عددها في مطلع العشرينيات من 2400إلى 4200 في عام 1929م)"[4]" بينما يجد بقية أفراد

المجتمع متعتهم أمام شاشات العرض في بيوتهم، وتطور الأجهزة المناسبة لذلك، وهكذا انفتحت نافذة العالم على المجتمع الفرنسي، كما استقبلهم العالم ونقل وثقافتهم وتبنتها شعوب أخرى سواء برغبتها أو تحت الضغط مثل ما فرضته على المستعمرات؛ التي كانت ضمن سلطتها السياسية أو العسكرية أو كلاهما. وبقي تأثيرها بعد الحربين العالمتين الأولى والثانية، ثم الحركات التحريرية التي خاضتها الشعوب المقهورة في سبيل حريتها والتي انتهت بالاستقلال في أغلبها.

الأدب جزء من الثقافة:

ما يهم في هذه المحاضرة قراءة التطور التاريخي عبر محطات بارزة يمكن تقسيمها كما يلي: المرحلة الأولى وتتحدث عن ما قبل القرن الثالث عشر. والمرحلة الثانية القرن السادس عشر، والثالثة ما بعد القرن السابع عشر. مع الإشارة إلى التطورات الحاصلة بين هذه الفترات الزمنية المتلاحقة في ما يخص الأدب الفرنسي كجزء من الثقافة المحلية.

يسلط الضوء على تطورات الأدب الفرنسي العنصر المهم في تشكل الثقافة الفرنسية عموما، وهنا الحديث يهتم بمرحلة ما قبل القرن الثالث عشر عصر الملاحم والشعر الغنائي.

إن استقرار الأدب وتطوره انعكاس لاستقرار الحياة بمختلف جوانبها الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وغيرها من مجالات الحياة؛ التي يعيشها المجتمع الفرنسي في تلك المرحلة. اللغة الفرنسية كانت مشتتة عبر عصر سابقة تتمثل في لهجات موزعة في أقاليم فرنسا بين الجنوب والشمال، والشرق والغرب بالإضافة إلى المؤثرات الخارجية التي تتجاذبها.

بدايات الأدب الفرنسي:

تم تقسيم الأدب (الذي كتب باللهجة الفرنسية الجنوبية المسماة "أوك" ولأمد قصير في الأقاليم الايطالية والاسبانية التي اعتمدت ثقافيا على فرنسا إلى ثلاث مراحل، اثنتان منها تقعان خارج نطاق هذا الجزء، تتميز الأولى بأنها فترة وحدة كتبت خلالها بشكل شامل لغة

أدبية عرفت باسم "بروفنسال الاتباعية الكلاسيكية" إلا أن التكلم بها لم يكن بنفس الشمول، وامتدت ما بين القرنيين الحادي عشر والخامس عشر. أما المرحلة الثانية فكانت فترة تفرق تطورت خلالها لهجات محلية متعددة "1600م-1800م" أما المرحلة الثالثة فكانت فترة انتعاش جزئي: القرنين التاسع عشر- القرن العشرين"[5]".

في الفترة ما بين القرن التاسع الميلادي وما يليه من القرون(كانت النصوص القصيرة المكتوبة في القرنين التاسع والعاشر نادرة وتثير اهتمامنا من ناحية أصول الكلمات وتطور معانيها. أما القرن الحادي عشر فقد خلا من أي نص بالفرنسية القديمة إلا أن هناك مخطوط "لأغنية رولاند" وهي أعظم الملاحم الفرنسية القديمة، وهو النص الأدبي الوحيد والهام الذي يرجع بالتأكيد إلى تاريخ يسبق 1150م. والمخطوط في حد ذاته انكلو نورماندي، لكن القصيدة المقفاة – المؤلفة من مقاطع كل منها من عشرة أبيات – أوروبية الأصل وتعود إلى تقليد قديم للشعر الشفهي المتناقل) "[6]" فلم يدون الشعر حينها غلب الطابع الشعري في الأدب الفرنسي في العصور الوسطى فكانت (أقدم مقطوعة وصلتنا من الشعر البروفنسالي هي لازمة موجودة بمخطوط في الفاتيكان ربما تعود إلى القرن العاشر، والأهم منها قطعة من شعر تعليمي محفوظة في مخطوط من أورليان) "[7]". وما وصل كان شفاهيا يتغنى به الشعراء.

التقسيم الزمني المعتمد في تأريخ الأدب الفرنسي يرى أن المرحلة الأولى تميزت بخاصية شيوع الشعر وغلبته على الفنون الأخرى (وقد أخذ الشعر في هذه الفترة طابعا مميزا جديدا، فهو يتسم بطابع المثالية والخيالية معا اللذين يميزان الطبقة الأرستقراطية وحدها، لذلك فإن الشّعر- وهو موجه لرجل البلاط الفرنسي وللأمراء والنبلاء وحدهم- قد اكتسب هو الآخر نفس طابع الإرستقراطية)"[8]" مما ينعكس كذلك على ملامح الشعر فنيا ولغويا من حيث الجماليات والإبداع في الصور البلاغية والشعرية التي يتم توظيفها والتي تليق بالمستمع الأرستقراطي.

الفنون الأدبية الفرنسية في العصور الوسطى:

ارتبط الشعر الفرنسي بالأقاليم الجغرافية لهذا نجد (تطور الشعر الغنائي في الجنوب بينما نشأ في الشّمال أدب أكثر تنوعا يغلب عليه القصص)"[9]" أنتجت الطبقة الأدبية الشعر بغزارة، وكان أولا: الشعر الغنائي (وأطلق عليها النقاد اسم القصائد الغنائية أي التي كان الشاعر أصلا يغنيها بمصاحبة قيثارته- التي كانت تتميز بإيقاع جميل وبمعان سامية)"[10]"

وفي نهاية القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر أصدرت مدارس الكاتدرائيات الفرنسية كمية وفيرة من الشعر كتبت لمناسبات معينة في نماذج كلاسيكية. نذكر من شعرائها ماربو "Marbod" من رينز "Rennes" وهيلدبرت "Hildebert" من لافاردان "Lavardin" وبودري "Baudry" من بورغيل "Bourgueil" وقد نظم جميعهم الترانيم الدينية بأوزان نبرية"[11]".

الشعر الغنائي: كان الخيالي للشعراء الجوالين في الشمال "التروفير" منطلق الشعر الغنائي الأول في شمال فرنسا، وتأثر هؤلاء الشعراء الموسيقيون من القرنيين الثاني عشر والثالث عشر، والذين استعملوا لهجة "الأويل" بالشعراء الجوالين في الجنوب "التروبادور" ولربما عنت ملحمة "تروفيري" أول ما عنت صانع المجاز "Tropes" أو "الحشو في الإنشاد الديني". وبينما بلغت" مدرسة التروبادور الأوج حوالي عام 1150م، نجد أن الشعر الغنائي في الشمال لم يرسخ أقدامه حتى الحرب الصليبية الثالثة عام1189م. "[12]"

التروبادور الشعراء الجوالون: في نهاية القرن الحادي عشر ميز بين الطبقة الأدنى من الشعراء المسمين الجوكلار والطبقة الأعلى منهم، وهم شعراء التروبادور سواء أكانوا من الطبقات العليا أم الدنيا للمجتمع، إذا كان وليام التاسع أول التروبادور"[13]".

يتضمن الأدب البروفنسالي بعض النماذج الهامة جدا من الشعر البطولي "وهو قصائد في مقطوعات غير محددة الطول ذات قافية واحدة" ويشغل المركز الأول في هذه القصائد قصيدة بعنوان جيرا دو روسيون "Girat de Roussillon" تتألف من عشرة آلاف

بيت، وتروي قصة نزاع شارل مارتل ضد تابعه جيرار دو روسيون. ويبدو أنها مجردة إعادة صياغة لقصيدة أطول لم تصلنا من أصل فرنسي أو برغندي. وفي منتصف السبيل بين الأسطورة والتاريخ تقع الأنشودة البروفنسالية عن حصار أنطاكية. وهناك قصيدة تاريخية حول الحملة الصليبية ضد الألبجنسيين تتألف في شكلها الراهن من قصيدتين أولاهما من تأليف غيلهم دو توديلا، أما الثانية التي تختلف بالأسلوب والآراء فتحفة من روائع الأدب البروفنسالي)"[14]".

القصائد القصصية:

لم تصلنا إلا ثلاث قصص من المغامرات وهي جوفرية "Jau Fré" بلالندا دو كورنولها "Blandin de Cornoalha" غيلم دو لابارا "Guillem de la Barra" وارتبط بقصص المغامرة ضرب آخر من القصص هو الحكاية "Novel" التيكانت في الأصل وصفا لحادثة وقعت مؤخرا. ويمكن رفع بعضها إلى مصاف أكثر الاعمال الأدبية"[15]"

المسرحية: تألف الأدب الدرامي لجنوبي فرنسا من مسرحيات حول الخلق ومعجزات القديسين من نوع الأسرار"الميستري" والمعجزات "الميراكل" قلما تجاوزن 2000أو 30000بيت. وترجع بشكل عام إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر– ويبدو أن أقدمها مسرحية تدور حول القديس "Agnes" كتب في "Arles" وتليها مسرحية "آلام المسيح" وأخرى "زواج العذراء" والأخيرة تكييف وتحوير لقصيدة فرنسية من القرن الثالث عشر"[16]".

وترى الدراسات الأدبية والتاريخية أن (المسرحيات الأولى في فرنسا كما هي الحال في أوروبا من مسرحيات ذات علاقة بالطقوس الدينية، وأشهرها "ميستري "Mystery" وتعني أصلا فصولا شعائرية" ولكنها أصبحت في القرن الرابع عشر تعني "عروضا درامية")"[17]" وهي المناسبات التي يجتمع فيها المبدعون مع عامة الشعب تحت أنظار رجال الحكم، ورجال الكنيسة.

النثر: كتبت في القرن الثاني عشر في لغة الأوك عظات ذات أهمية لغوية أكثر منها أدبية. وفي حوالي نفس الوقت ترجم انجيل يوحنا القديس يوحنا في ليموزان "Limousin" وفي لغتي الأوك والبروفنسال ظهرت عدة ترجمات للعهد الجديد ولبعض أسفار العهد القديم خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر"[18]".

ومن المؤلفات النثرية الرئيسية في هذه الحقبة مقالة حول الشعر والنحو والبيان تعرف باسم ليه دامور "Lays D'amour"، ألفت في طولوز. وكان تفسخ الأدب البرفنسالي بسبب الظروف السياسية أسرع مما يتوقع وهكذا لم يفسح المجال لتطور كامل النثر"[19]".

مشاهير الثقافة والأدب الفرنسيين:

ارتبط تاريخ فرنسا الأدبي والثقافي بأسماء ووجوه خلدتها كتاباتهم وأعمالهم، في الشعر والنثر والسينما وغيرها من أشكال الثقافة وهنا في هذا الحيز التركيز على الوجوه الأدبية الفرنسية؛ التي تركت أثرها داخل فرنسا وخارجها؛ من بينهم:

الفونس دو لا مارتين "Alphonse De La Martine" من أعماله في قصيدة "التأملات" 1820م تشوبها الأحاسيس الدينية، و"إيقاعات شعرية ودينية" 1830م، ثم نجده في "الحواس والأفكار" 1839م شديد الاهتمام بالمشاكل الاجتماعية، يعبر عن الندم على أنانيته الحزينة ويتعاطف مع الانسانية ويبدي إيمانه بمستقبلها"[20]".

أسس فيكتور هوجو وشارل أوغستين دون بوف "Beuve" عام 1827م جماعة أطلقت على نفسها اسم "Cénacle" وقد ضمت الأدباء ألفريد دوفينين "Alfred de Viny" وألفريد دوموسيه "Alfred de Musset " وبروسبير ميريميه "Prosper Mérimée" وتيوفيل غوتييه "Theophile Gautier" وجيرار دونيرفال "Géraradde Nerval" وألكساندر دوماس "Alexandre Dumas" "[21] هؤلاء مجموعة من الشعراء الذين تركوا بصمتهم وأعمالهم على الصعيد الأدبي.

وضمت قائمة من مفكرين وأدباء تميزوا على مستوى العالم، وليس فرنسا فقط أولهم: حصل أناتول فرانس "Anatole France" على التكريم والتكريس بنيله نوبل في عام 1921م، وثانيهم: روجيه مارتان دو جار "Roger Martin du Gard" حصل على جائزة نوبل كذلك عام1937م، وهما اثنان من أساتذة الفكر الجدد مهنتهما الأدب"[22]". هذه نظرة شاملة عن الثقافة عموما، والأدب الفرنسي خصوصا وأهم مظاهر الثقافة الأخرى: المسرح والسينما، وأعمال الأعلام الذين صنعوا مجد فرنسا الثقافي والأدبي.

للإطلاع أكثر والبحث عن موضوع المحاضرة إليك **قائمة المصادر والمراجع:**

باسكاله جوتشيل، إيمانويله لوابيه، تاريخ فرنسا الثقافي من "العصر الجميل" إلى أيامنا هذه، تر مصطفى ماهر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط 01، 2011.

أحمد محمد مصطفي، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الإعصار العالمي، عمان، الأردن، 1437هـ/2016م، ج01.

نخبة من الأساتذة المختصين، تاريخ الأدب الغربي، دار طلاس، دمشق، سوريا، 1984، ج01.

عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2001م، ج02.

محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط09، 2008.

ر. هـ . روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر أحمد عوض، سلسلة علم المعرفة، الكويت، 1997.

لويس سيديو، خلاصة تاريخ العرب، تر محمد أحمد عبد الرزاق، مؤسسة هنداوي، القاهرة، مصر، 2017.

[1] – جامعة كل المعارف – ما الثقافة؟، ايف ميشو، إشراف جابر عصفور، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ع1018 ، ط 1، 2006، ج6، ص318.

[2] – نفسه، ج6، ص317.

[3] – باسكاله جوتشيل، إيمانويله لوابيه، تاريخ فرنسا الثقافي من "العصر الجميل" إلى أيامنا هذه، تر مصطفى ماهر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط 01، 2011 ، ص74.

[4] – نفسه، ص140.

[5] – نخبة من الأساتذة المختصين، تاريخ الأدب الغربي، دار طلاس، دمشق، سوريا، 1984، ج01، ص114.

[6] – نفسه، ج01، ص93.

[7] – نفسه، ج01، ص114.

[8] – ينظر رجاء ياقوت: الأدب الفرنسي في عصر النهضة، دار المعارف، القاهرة، 1978، ص36.

[9] – نخبة من الأساتذة المختصين، تاريخ الأدب الغربي، ج01، ص91.

[10] – ينظر رجاء ياقوت: الأدب الفرنسي في عصر النهضة، ص36.

[11] – نخبة من الأساتذة المختصين، تاريخ الأدب الغربي، ج01، ص87.

[12] – نفسه، ج01، ص98.

[13] – نفسه، ج01، ص115. وينظر، محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط09، 2008 ص218.

[14] – نخبة من الأساتذة المختصين، تاريخ الأدب الغربي، ج01، ص116.

[15] – نفسه، ج01، ص117.

[16] – نفسه، ج01، ص118.

[17] – نفسه، ج01، ص99 وما بعدها.

[18] – نفسه، ج01، ص118.

[19] – نفسه، ج01، ص118.

[20] – نفسه، ج02، 587.

[21] – نفسه، ج02، 588.

[22] – ينظر، باسكاله جوتشيل، إيمانويله لوابيه، تاريخ فرنسا الثقافي من "العصر الجميل" إلى أيامنا هذه، ص128.